الاستدلال بالقرآن الكريم على نظرية التطور جمعاً ودراسة

منصور بن حمد العيدي(١)

الملخص

موضوع البحث: هذا البحث يتناول بالدراسة والتحليل الآيات القرآنية التي يُدعّى أنها تدل على صحة نظرية التطور، مع عرض وجهة نظر القائلين بذلك، ثم مناقشة استدلالهم، وصولاً إلى المعنى الصحيح لهذه الآيات.

أهداف البحث: وقد أراد الباحث من هذا البحث تحقيق الأهداف التالية:

- جمع الآيات التي قيل بأنها تدل على نظرية التطور، وعرض وجه الاستدلال لذلك، ومناقشته، ومن ثم الوصول إلى القول الراجح، ولفت النظر إلى بعض التفسيرات القرآنية المعاصرة، ومعرفة مراد الله تعالى من هذه الآيات القرآنية بحسب الطاقة البشرية.

منهج البحث: سار الباحث في بحثه هذا على: المنهج الاستقرائي الموصول بالتحليل، المتمثل في استقصاء جميع الآيات التي قيل إنها تدل على نظرية التطور، ومناقشتها، وصولاً إلى الصواب في معناها.

أهم النتائج: لا يرى الباحث صحة أي استدلال على نظرية التطور من هذه الآيات المذكورة في البحث، وقد ظهر له تعسف هؤلاء المستدلين في حمل نصوص القرآن الكريم على مُدّعاهم.

(١) الأستاذ المشارك في قسم الدراسات القرآنية في جامعة الإمام عبد الرحمن بن فيصل
mhaleidi@iau.edu.sa

التوصيات: يوصي الباحث بالكتابة الموسعة المؤصلة في العلاقة بين النصوص القرآنية ومعطيات العلم التجريبي.

الكلمات المفتاحية: التطور، آدم، سلالة، خلق.

A Compilation and Study of Inferences from the Holy Qur'an on the Theory of Evolution

Mansour bin Hamad Al-Eidi

ABSTRACT

Research topic: This research deals with the study and analysis of the Qur'anic verses that are claimed to indicate the validity of the theory of evolution, presenting the viewpoint of those who claimed it, and then discussing their inferences, in order to find the correct meaning of these verses.

Research aims: The researcher intends from this research to achieve the following objectives:

- Collecting the verses that were claimed to indicate the theory of evolution.
- Providing the inference for that, discussing it, and then reaching to the most correct saying.
- Drawing attention to some contemporary exegesis of the Qur'an.
- Understanding God Almighty's intended meaning behind these Qur'anic verses to the best of our human ability.
- Reaching the truth about the claim that these verses indicate the theory of evolution.

Research Methodology: The researcher used the analytical inductive approach. He investigated all the verses that were said to indicate the theory of evolution and discussed them to find their correct meaning.

The most important results: The researcher does not see the authenticity of any inference on the theory of evolution from these verses mentioned in the research, and the arbitrariness of those who inferred in misinterpreting the texts of the Noble Qur'an according to their claim is cleared.

Recommendations: The researcher recommends extensive writing on the relationship between the Qur'anic texts and the discoveries of empirical science.

Keywords: Evolution, Adam, lineage, creation.

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلّم

أما بعد:

فإن من المسلّم به أن القرآن الكريم هو المرجع الأول للمسلمين الذي لا يتطرّق إليه شك، وأن كل ما فيه هو الحق من ربنا، سواء أكان في الأمور الدنيوية أم الأخروية، والقرآن – وإن كان في الأصل – كتاب هداية، إلا أنه لا يخلو من قضايا تندرج تحت ما يُعرف بالعلم التجريبي أو الطبيعي، وبالتالي فإن الاستدلال بالقرآن على مثل هذه الأمور قد يكون صواباً وقد يكون خطأ.

مشكلة البحث

تكمن مشكلة هذا الدراسة في وجود عدد من الباحثين الذين يستدلون بالقرآن الكريم على ما يُعرف بنظرية التطور، فأراد الباحث عرض استدلالهم على أصول التفسير وقواعده؛ لمعرفة هل أصابوا في هذا الاستدلال أو أخطأوا.

حدود البحث

يقتصر البحث على الآيات القرآنية التي يُستدلّ بها على صحة نظرية التطور فيما يتعلق بالخلق، مكتفياً بأشهر الآيات القرآنية المذكورة في كتب المؤيدين لنظرية التطور، ولن يتطرّق البحث إلى صواب نظرية التطور من عدمه، كما لن يتطرّق إلى استدلالهم بالأحاديث النبوية أو أي ممّا يُعرف بالأدلة الإجمالية.

أهمية هذا البحث

- أن هذا البحث متصل بالأصل الأول عند المسلمين الذي ينبغي أن يولوه عنايتهم القصوى، ألا وهو: القرآن الكريم، ومن مظاهر هذه العناية: حماية جناب النص القرآني من الاستدلال الخاطئ.

- أن هذا البحث سيسلط النظر إلى جملة من الدلالات والهدايات القرآنية التي قد يُغفل عنها.
- أن هذا البحث يُقدّم مثالاً عملياً على وجوب الانضباط بالضوابط الشرعية حين الكلام عن شيء متعلق بمعاني القرآن الكريم.
- أني لم أجد بحثاً أو دراسة اعتنت بموضوع الاستدلال القرآني على نظرية التطور.
- أن نظرية التطور لها حضور طاغٍ في كثير من الأوساط العلمية.

أهداف البحث

- الحكم على هذه الاستدلالات القرآنية بالصواب أو الخطأ.
- بيان ضرورة إعمال قواعد التفسير، حين الاستدلال بالآيات القرآنية.
- إبراز بعض المقاصد القرآنية في هذه الآيات.
- بيان خطورة إقحام النصوص القرآنية في كل نظرية علمية.
- جمع ما تفرّق من كلام العلماء في هذه الآيات.

منهج البحث

المنهج الاستقرائي الموصول بالتحليل، المتمثل في استقصاء أشهر ما ورد من استدلال بالآيات القرآنية على نظرية التطور، ثم مناقشته، والحكم عليه.

الدراسات السابقة

ثمة دراسات مشكورة حول نقد نظرية التطور لعل من أقدمها: الحجج العصماء في نقد نظرية التطور لابن خليفة عليوي القلعجي.

وهناك رسالة دكتوراة بعنوان: التأويلات المعاصرة حول خلق آدم عليه السلام للدكتورة: مريم حسن تيجاني، وبحث بعنوان: خلق آدم ونظرية التطور للدكتور محمد بن

علي البار. وبحث محكم بعنوان: نماذج من النظريات حول خلق الإنسان ونقدها في ضوء القرآن الكريم: رؤية شرعية وحقائق علمية للدكتور مظهر محمد طاهر. إلا أن هذه الدراسات بما فيها الأخيرة لم تقم بجمع الآيات التي يستدل بها أصحاب نظرية التطور، ولا دراسة استدلالاتهم، فضلاً عن مناقشتها مناقشة تعتمد على أصول التفسير وقواعده، لذا رأيت من المناسب بذل الجهد في هذا الأمر والكتابة فيه.

خطة البحث

يتكون البحث من مقدمة تتضمن: مشكلة البحث، وحدوده، وأهميته، ومنهج البحث، والدراسات السابقة، ثم خمسة مطالب:

وهي على النحو التالي:

المطلب الأول: تعريف نظرية التطور.

المطلب الثاني: النقد المجمل لربط هذه النظرية بالقرآن الكريم.

المطلب الثالث: الأمر القرآني بالبحث في أصل الخلق.

المطلب الرابع: الآيات التي تُشير إلى وجود بشر أو إنس قبل آدم عليه السلام.

المطلب الخامس: الآيات التي تُشير إلى وجود تطور في خلق الإنسان، واستمرار عملية التطور.

وبعد ذلك **الخاتمة** والمراجع.

وسيجد القارئ – إن شاء الله تعالى – في هذا البحث أشهر الآيات القرآنية التي استدلّ بها مؤيدو نظرية التطور، ومناقشة مفصلة على هذه الاستدلالات معتمدة على أصول التفسير وقواعده.

سائلا المولى العلي القدير التوفيق والسداد، والله – تعالى – أعلى وأعلم.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المطلب الأول

تعريف نظرية التطور

على الرغم من كون هذه النظرية من أوسع النظريات انتشاراً، كما أن التطور من أكثر المصطلحات شهرة، إلا أن ثمة غموضاً كبيرا في مدلولات المصطلح والنظرية [١]، علاوة على أن القائلين بهذه النظرية لا يتفقون في كثير من تفاصيلها، ففي الوقت الذي نرى فريقاً – على سبيل المثال- يتبناها بتطرف في كافة مناحي العلوم، ويرى اقترانها بالإلحاد، نجد آخرين ممّن يقبلها لا يرى أنها تستلزم الإلحاد، ولا العشوائية في الخلق.

وقد عرّفت الأكاديمية الوطنية للعلوم – وهي أكبر مؤسسة علمية أمريكية- التطور البيولوجي بأنه: "يتعلق بالتغيرات التي تحدث للكائنات الحية خلال تاريخ الحياة على الأرض. وهو يوضح كيف تتشارك الكائنات الحية في أسلاف مشتركة، وعلى مدار الوقت تتسبب هذه التغيرات التطورية في نشوء أنواع جديدة. وقد أطلق داروين على هذه العملية لقب: النشوء والارتقاء" وهو يظل تعريفاً جيداً للتطور البيولوجي في الوقت الحالي[٢]، ولما كانت هذه النظرية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالعالم تشارلز داروين فمن المناسب أن نذكر بعضاً ممّا قاله في هذه النظرية وتحديداً فيما يتعلق بخلق الإنسان.

يقول دارون: "بملاحظة التركيب الجنيني للإنسان.... نستطيع أن نستحضر بصورة جزئية حال أسلافنا السابقين، ويمكننا أن نضعهم في مكانهم الصحيح في السلسلة الحيوانية بصورة تقريبية. وبالتالي نعلم أن الإنسان نشأ من حيوان من ذوات الأربع مكسو بالشعر،

(١) النظريات العلمية الحديثة مسيرتها الفكرية، حسن الأسمري، ١/ ٢٠٤.
(٢) آدم عليه السلام بين التطور والتطور الموجه، إبراهيم الشحات، ص٣.

مزوداً بذيل، وآذان محدبة"[١]، ولم يجد غضاضة في أن يقول: "من جهتي فأنا سرعان ما سأنحدر من هذا القرد الصغير البطولي ... أو من هذا البابون القديم"[٢]. وقد انتهى دارون إلى أن كل الكائنات الحية أصلها من خلية واحدة، وأن الحياة وُجدت فيها صدفة [٣].

(١) المرجع السابق، ص٧٣.
(٢) المرجع السابق، ص٧٢.
(٣) النظريات العلمية الحديثة مسيرتها الفكرية، حسن الأسمري، ١/ ٢٠٦.

المطلب الثاني

النقد المجمل لربط هذه النظرية بالقرآن الكريم

لقد تلقف هذه النظرية كثيرون وصار لها حضور كبير، بل طاغٍ في المؤسسات العلمية، وعلى الرغم من أن جزءا من هذه النظرية – على الأقل- يتصادم مع ظاهر النصوص القرآنية لا سيما قصة آدم، إلا أن نفراً ليس بقليل من المسلمين تبنوا هذه النظرية ودافعوا عنها، وفي سبيل ذلك تأولوا ظواهر النصوص القرآنية، بل زاد على ذلك نفر منهم فحاول الاستدلال على صحة نظرية التطور من خلال النصوص القرآنية، وهؤلاء الباحثون قد وقعوا في خطأ إجمالي، وآخر تفصيلي.

أما الإجمالي فهو إقحام النصوص القرآنية في مجال هذا النوع من النظريات العلمية، وهذا الإقحام بحد ذاته ينطوي على جملة من الأخطاء.

أولها: أن القرآن الكريم كتاب كامل في موضوعه، وموضوعه أضخم من كل العلوم التجريبية فضلاً عن نظرية هنا أو هناك، ووظيفة القرآن هي: هداية الإنسان بمعناها العام الشامل لكيفية التعامل مع الحياة برمتها، ومن ذلك كيف يتعامل مع العلوم التجريبية بتفصيلاتها، لكون هذه التفصيلات موكولة إلى عقله فهي جزء من عمله، وليست موكوله إلى النص القرآني.

ثانيها: أن حقائق القرآن قطعية ونهائية ومطلقة، ثابتة لا تتغير، أما ما يتوصل إليه الإنسان فهو دون ذلك بكثير، فما يظنه الإنسان في يوم أنه حقيقة لربما تراجع عن ذلك في اليوم التالي، وإذا كان هذا فيما يسميه الإنسان حقيقة – بحسب ظنه- فمن باب أولى ما كان داخلاً عن دائرة النظريات والفرضيات، ويترتب على ذلك أنه من الخطأ ربط الحقائق القرآنية الثابتة بأمر هو من نتاج العقل البشري القابل للتغير.

ثالثها: أن من انتقاص القرآن الكريم جعله تابعاً لنظرية هنا أو هناك، بل وتعريضه نصوصه لعمليات تأويل مستمرة هي في الحقيقة تحريف للكلم عن مواضعه؛ لتوافق تلك النظريات، وللأسف الشديد فإن بعضهم لا يبالي بهذا الصنيع، ويزعم أنه لا يسيء للقرآن بذلك، ويقول: إن ذلك إنما هو خطأ يُنسب لصاحبه وليس للنص القرآني! والواقع أن في ذلك أعظم إساءة للقرآن الكريم حين أجعله كتابا مفتوحاً على كل الاحتمالات أياً كانت، يفهم منه الشيء ونقيضه، وليس كتاب هدى ورشاد لا يدل إلا على الصراط المستقيم(١).

رابعها: أن كثيراً ممّن تكلم في هذه الأشياء لم يكن يمتلك الأهلية اللازمة لتفسير القرآن الكريم؛ ذلك أنه يشترط لمن أراد أن يتكلم في معاني القرآن أن يُلمّ بقدر لا بأس به من العلوم الشرعية، وإضافة إلى ذلك: أن يتحلّى بعدد من الأوصاف المعتبرة(٢)، وهو ما لا نراه في هؤلاء.

فهذه جملة من الأخطاء الإجمالية التي وقع فيها مقحمو القرآن الكريم في النظريات العلمية المختلفة بما فيها نظرية التطور، أما الخطأ التفصيلي الذي وقع فيه المستدلون بالنصوص القرآنية على صواب نظرية التطور، فهو ما سنناقشه في المطالب التالية.

(١) اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، فهد الرومي، ٢/ ٥٩٢، ولا يعني هذا رفض ما يُسمّى الآن بالإعجاز العلمي لكن ينبغي أن يُراعى في ذلك تجنب هذه الأخطاء، وأيضاً الالتزام بشروط قبول هذا النوع من الإعجاز. يُنظر كتاب الإعجاز العلمي في القرآن لزاهر الشهري

(٢) المفسر: شروطه، آدابه. أحمد قشيري، ص٩٩.

المطلب الثالث

الأمر القرآني بالبحث في أصل الخلق.

يرى هؤلاء الباحثون المتحمسون لنظرية التطور: أن البحث في أصل نشأة الكون، وأصل خلق الإنسان ليس فضلة من الأمر، وليس مباحاً فحسب، بل هو تكليف قرآني. يقول بعضهم: "فإنه عز وجل قد أمرنا أن نبحث في أصل الإنسان الطيني، بل وأصل جميع المخلوقات، قال تعالى: ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ [سورة العنكبوت:٢٠]"(١)، ويقول أيضاً: "بل ويطالبنا القرآن بالبحث في علوم البدايات، كيف بدأ خلق الكون والحياة والإنسان، ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ [سورة العنكبوت:٢٠](٢). بل ذهب آخر خطوة أبعد فزعم أن جميع المسلمين قد أخلوا بهذا التكليف، وأنه لم يقم به أحد سوى دارون(٣).

المناقشة

أولاً: إن الاستدلال بهذه الآية على وجوب البحث في بدايات الخلق أمر بعيد كل البعد عن الصواب، لما يلي: أن المقصد من هذه الآية الكريمة هو: الاستدلال بما يعرفه عامة الناس من مشاهداتهم اليومية على قدرة الله عز وجل على البعث، أما البحث في المتحجرات، والتأمل في النظريات الحديثة فهو أمر عسير على أكثر الخلق، لا سيما من خوطبوا بالآية أول مرة وهم: قريش القبيلة الأمية أو قوم إبراهيم، فهؤلاء ليس عندهم أبسط الوسائل فضلاً عن أعقدها، والتي من خلالها يعرفون أعمار الأحافير والمتحجرات أو يفهون جنس تلك النظريات، ثم إنه لا حاجة أصلاً للاستدلال على

(١) كيف بدأ الخلق، عمرو شريف، ص٣٤٧.
(٢) المرجع السابق، ص٣٣١، ويُنظر: كتاب أبي آدم، عبد الصبور شاهين، ص٣٨.
(٣) قضية الخلق، حسن حامد، ص٧.

صحة البعث بمعرفة تلك الأشياء، فيكفي النظر فيما حولهم من مخلوقات الله، أو على أبعد تقدير بالسير بأبدانهم في الأرض للنظر في مخلوقات الله تعالى، فيُشاهدون بأعينهم بدءها وتجددها، دون حاجة لمختبر ولا معمل.

يقول ابن القيم: " والمقصود أنه سبحانه دعا الإنسان أن ينظر في مبدأ خلقه ورزقه فإن ذلك يدله دلالة ظاهرة على معاده ورجوعه إلى ربه.... ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ [سورة العنكبوت:٢٠]. يقول تعالى: انظروا كيف بدأت الخلق فاعتبروا الإعادة بالابتداء"(١). ويقول السعدي: "﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بأبدانكم وقلوبكم ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ فإنكم ستجدون أمما من الآدميين والحيوانات، لا تزال توجد شيئا فشيئا، وتجدون النبات والأشجار، كيف تحدث وقتا بعد وقت، وتجدون السحاب والرياح ونحوها، مستمرة في تجددها، بل الخلق دائما في بدء وإعادة، إليهم وقت موتتهم الصغرى -النوم- وقد هجم عليهم الليل بظلامه، فسكنت منهم الحركات، وانقطعت منهم الأصوات، وصاروا في فرشهم ومأواهم كالميتين، ثم إنهم لم يزالوا على ذلك طول ليلهم، حتى انفلق الإصباح، فانتبهوا من رقدتهم، وبعثوا من موتتهم. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة العنكبوت:٢٠]. فقدرته تعالى لا يعجزها شيء وكما قدر بها على ابتداء الخلق، فقدرته على الإعادة من باب أولى وأحرى"(٢). ونرى ابن كثير ينبه على أن هذه الآية كنظائرها القرآنية التي فيها الاستدلال على البعث بأن الذي خلق أول مرة قادر على إحياء من مات. يقول:" يقول تعالى مخبراً عن الخليل عليه السلام أنه أرشدهم إلى إثبات المعاد

(١) إعلام الموقعين، ابن قيم الجوزية / ١٤٦.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٦٢٩.

الذي ينكرونه بما يشاهدونه في أنفسهم من خلق الله إياهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً، ثم وجدوا وصاروا أناساً سامعين مبصرين، فالذي بدأ هذا قادر على إعادته، فإنه سهل عليه يسير لديه، ثم أرشدهم إلى الاعتبار بما في الآفاق من الآيات المشاهدة من خلق الله الأشياء: السموات وما فيها من الكواكب النيرة الثوابت والسيارات، والأرضين وما فيها من مهاد وجبال، وأودية وبراري وقفار، وأشجار وأنهار، وثمار وبحار، كل ذلك دال على حدوثها في أنفسها، وعلى وجود صانعها الفاعل المختار، الذي يقول للشيء كن فيكون، ولهذا قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ [سورة العنكبوت: ١٩]. كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [سورة الروم:٢٧]. ثم قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ [سورة العنكبوت:٢٠] أي: يوم القيامة ﴿إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة العنكبوت:٢٠]. وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [سورة فصلت: ٥٣]. وكقوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ(٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [سورة الطور: ٢٥-٣٦]"(١).

ثانيًا: أن سياق الآية الكريمة وسباقها ولحاقها هو في مجادلة إبراهيم عليه السلام لقومه، يدعوهم إلى وحدانية الله تعالى، وإلى إثبات البعث مستدلاً لهم على ذلك، بقدرة الله تعالى على البدء، وأن من خلقهم أول مرّة قادر على إعادتهم، وفي غضون ذلك الدعوة إلى السير في الأرض للنظر في أحوال المخلوقات، ولا يستقيم بحال أن يطلب إبراهيم من قومه، أو يطلب محمد ﷺ من مشركي قريش الأميين الاطلاع على المتحجرات أو

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٥٤.

الأحافير، أو علم دقائق الأحياء. يقول ابن كثير: "يقول تعالى مخبراً عن الخليل عليه السلام أنه أرشدهم إلى إثبات المعاد الذي ينكرونه بما يشاهدونه في أنفسهم من خلق الله إياهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً، ثم وجدوا وصاروا أناساً سامعين مبصرين، فالذي بدأ هذا قادر على إعادته، فإنه سهل عليه يسير لديه، ثم أرشدهم إلى الاعتبار بما في الآفاق من الآيات المشاهدة من خلق الله الأشياء: السموات وما فيها من الكواكب النيرة الثوابت والسيارات، والأرضين وما فيها من مهاد وجبال، وأودية وبراري وقفار، وأشجار وأنهار، وثمار وبحار، كل ذلك دال على حدوثها في أنفسها، وعلى وجود صانعها الفاعل المختار، الذي يقول للشيء كن فيكون[1]. ويقول السعدي: "﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بأبدانكم وقلوبكم ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ فإنكم ستجدون أمما من الآدميين والحيوانات، لا تزال توجد شيئا فشيئا، وتجدون النبات والأشجار، كيف تحدث وقتا بعد وقت، وتجدون السحاب والرياح ونحوها، مستمرة في تجددها، بل الخلق دائما في بدء وإعادة، إليهم وقت موتتهم الصغرى -النوم- وقد هجم عليهم الليل بظلامه، فسكنت منهم الحركات، وانقطعت منهم الأصوات، وصاروا في فرشهم ومأواهم كالميتين، ثم إنهم لم يزالوا على ذلك طول ليلهم، حتى انفلق الإصباح، فانتبهوا من رقدتهم، وبعثوا من موتتهم. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فقدرته تعالى لا يعجزها شيء وكما قدر بها على ابتداء الخلق، فقدرته على الإعادة من باب أولى وأحرى"[2]. ويؤيد كلام هؤلاء العلماء: أن في سباق الآية ذكر البدء بصيغة المضارع ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ فجمع الله في حثهم على النظر بين الماضي والمضارع. يقول ابن عاشور: "وجيء يبدئ بصيغة المضارع لإفادة تجدد بدء الخلق كلما

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٥٤.
(٢) تفسير السعدي، ص: ٧٢.

وجه الناظر بصره في المخلوقات.... وجيء في جانب بدء الخلق بالفعل الماضي؛ لأن السائر ليس له من قرار في طريقه فندر أن يشهد حدوث بدء مخلوقات، ولكنه يشهد مخلوقات مبدوءة من قبل فيفطن إلى أن الذي أوجدها إنما أوجدها بعد أن لم تكن وأنه قادر على إيجاد أمثالها فهو بالأحرى قادر على إعادتها بعد عدمها"(١). فالسياق في أمر مُشاهد ممكن لكل أحد فيُستدل به على الوحدانية والبعث، فجعل هذه الآية في أمر التطور هو نزع لها عن سياقها، وإقحام لمعنى أجنبي لا يمت لها بصلة، ومن القواعد التفسيرية التي ينبغي أن يضعها الباحث في حسبانه: قاعدة مراعاة السياق، وهي: إدخال الكلام في معنى ما قبله وما بعده، أولى به من الخروج به عن ذلك(٢).

ثالثًا: أن هذا المعنى الذي أشار إليه ابن كثير والسعدي وغيرهما، له نظائر كثيرة في القرآن الكريم، فليس هو بالمعنى المتفرد. يقول ابن كثير: "وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [سورة فصلت:٥٣] وكقوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [سورة الطور: ٢٥-٣٦]"(٣). والقرآن الكريم مثاني، تُكرر فيه المعاني، وخير ما يُفسّر به القرآنُ القرآنَ، ومن القواعد المتفق عليها: أن أصح طرق التفسير: تفسير القرآن بالقرآن، فما أجمل في موضع يأتي بيانه في موضع آخر، وما اُختصر في مكان فقد بُسط في مكان آخر(٤)، بخلاف ما ذكره التطوريون من المعنى فإنه ليس له نظير في القرآن الكريم.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٠/ ٢٢٩-٢٢٣٠.
(٢) السياق القرآني وأثره، سعد الشهراني، ص١١٠، ويُنظر جامع البيان، الطبري، ٧/ ٢٠٥.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٥٤.
(٤) مقدمة في أصول التفسير، ابن تيمية، ص٣٩.

رابعًا: أن المقصد من الآية الكريمة: إثبات المعاد، والاستدلال لذلك بالمبدأ، فالذي خلقهم وخلق غيرهم قادر على إعادتهم، وهذا المقصد بهذا الدليل يعدّ أحد أشهر المقاصد القرآنية، أما ما يذكره التطوريون فليس هو بالمعنى المعروف في القرآن فضلاً أن يكون بيانه مقصداً قرآنياً. وقد قرر الشاطبي أن من لم يعرف مقاصد القرآن فلا يحل له أن يتكلم فيه(١).

خامسًا: أن الخطاب في الآية الكريمة لم يكن موجهاً للمؤمنين أصلاً، وإنما للمشركين المنكرين للبعث، وليس هو بالأمر المطلوب لذاته، ولذا فإن النبي عليه الصلاة والسلام والصحابة وأهل الإيمان عندهم من الآيات الشرعية، الدالة على الحقائق، ما يغنيهم عن السير في الأرض، فلا يُعرف عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه فعل ذلك، ولا حث عليه أحد من الصحابة، ولذا فإن من شنيع القول الزعم بأن الأمة أخلت بتطبيق هذه الآية، وما ذاك إلا لغياب معرفة المُخاطب بالآية ابتداء عن التطوريين.

سادسا: أن ما ذكره التطوريون من المعنى لم يقل به أحد من المفسرين، بل المنقول عنهم خلافه، فيكون ما قاله التطوريون مخالف للإجماع لا يحل القول به؛ لما فيه من نسبة الجهل والضلال إلى الأمة طوال هذه القرون. يقول ابن تيمية: "من فسّر القرآن أو الحديث أو تأوله على غير التفسير المعروف عن الصحابة والتابعين فهو مفتر على الله، ملحد في آيات الله، محرف للكلم عن مواضعه، وهذا فتح لباب الزندقة والإلحاد، وهو معلوم البطلان بالاضطرار من دين الإسلام"(٢). فإذا كان هذا التفسير هو أيضاً تفسير لمن أتى بعدهم فيكون ذلك من باب أولى.

(١) الموافقات، الشاطبي، ٣/ ٢١٣، ويُنظر مقاصد القرآن الكريم مجموعة بحوث، ص٩٤.
(٢) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، ١٣/ ٣٦١.

المطلب الرابع

الآيات التي تُشير إلى وجود بشر أو إنس قبل آدم عليه السلام

يرى التطوريون أن آدم لم يُخلق مباشرة من الطين وإنما خُلق من أبوين، وأن من سبق آدم من البشر كانت سلوكياتهم حيوانية بهيمية، فميّز الله آدم من بينهم، وجعله رسولاً إلى قومه، وهم في سبيل ذلك احتجوا ببعض الأدلة القرآنية، **من أبرزها قول الله تبارك وتعالى**: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ(٣٠)﴾ [سورة البقرة:٣٠]، قالوا: حيث أن الخليفة هو من يخلف غيره، فهذا يدل على أن ثمة بشر قد سبقوا آدم، وأنه خلفهم بعد مجيئهم، لا سيما وأنه لم يُذكر في القرآن أي نص يشير لخلافة الناس للجن أو الملائكة، كما أن سؤال الملائكة يدل على معرفتهم بهؤلاء البشر المفسدين في الأرض![1].

المناقشة

إن الاستدلال بهذه الآية على أن لآدم أبوين ليس له حظ من النظر لما يلي:

أولاً: أنه تقرر في أصول التفسير وقواعده أنه إذا اختلف السلف على قولين فإنه لا يصح إحداث قول ثالث يخرج عن أقوالهم؛ لما يلزم عليه من تجهيل الأمة بكافة، ونسبة الضلال إليها بعامة[2]. ولم يقل أحد من السلف، بل ولا الخلف أن الملائكة تساءلت ذلك التساؤل لعلمهم بوجود أصول لآدم وأن تلك الأصول كانت تفسد في الأرض، بل على العكس من ذلك يذكر بعض المفسرين: أن من خرافات الفرس واليونان

(١) أبي آدم، عبد الصبور شاهين، ص١٣٩، قضية الخلق، حسن حامد، ص ١١٠، كيف بدأ الخلق، عمرو شريف، ص٣٥٤، آذان الأنعام، عماد محمد، ص٥٢، هل خلق آدم في الأرحام، ص٣٣.

(٢) قواعد التفسير، السبت، ١/ ٢٠٠.

ادعاؤهم بوجود جنس قبل آدم بين الجن والإنس، مع التسليم بأن آدم قد خُلق خلقاً خاصاً، وأنه لا صلة بينه وبين تلك الكائنات[١].

ثانيًا: أن التطوريين قد أغفلوا الاحتمالات الكثيرة لمعنى هذه الآية الكريمة، فتفسير الخليفة بمن يخلف غيره ليس محل اتفاق فقد يُراد به الحاكم، وقد جاء عن ابن مسعود[٢]. ثم إنه لا يتعين أن يكون المراد بالخليفة: آدم فقد يكون المراد بنيه أو هو وبنيه، ولا يشكل على هذا تسميتهم بصيغة المفرد. قال أبو حيان: "والأنبياء هم خلائف الله في أرضه، واقتصر على آدم لأنه أبو الخلائف، كما اقتصر على مضر وتميم وقيس، والمراد القبيلة. وقيل: ولد آدم لأنه يخلف بعضهم بعضا: إذا هلكت أمة خلفتها أخرى، قاله الحسن، فيكون مفردا أريد به الجمع"[٣]. كذلك لا يلزم أن تكون الملائكة قالت ذلك الكلام لعلمهم بوجود بشر قبل آدم، فقد يكون الله تعالى أعلمهم بصنيع بنيه، أو علموا ذلك لما عرفوه من طبيعة خلق آدم[٤]، إلى غير ذلك من الاحتمالات، والقاعدة أن الدليل إذا تطرّق إليه الاحتمال المعتبر كساه ثوب الإجمال، وسقط به الاستدلال[٥]. وتقديم أحد الاحتمالات دون قرينة معتبرة هو من قبيل التحكم الذي لا يتوافق مع الدراسة الموضوعية.

ثالثًا: أنه ثبت بالسنة القطعية أن آدم عليه السلام هو أبو البشر، في حديث الشفاعة المتواتر

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/ ٣٩٩.
(٢) النكت والعيون، الماوردي ، ١/ ٩٥.
(٣) البحر المحيط، أبو حيان، ١/ ٢٢٧.
(٤) التفسير البسيط، الواحدي، ٢/ ٣٢٦، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١/ ٢٧٤، التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/ ٤٠٢، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٤٨.
(٥) من أصول الفقه على منهج أهل الحديث، زكريا غلام، ص٣٤.

وغيره عن جماعة من أصحاب النبي ﷺ[١]، وقد اتفق أهل العلم على صحته، فأي قول يُخالف هذا القطعي كالزعم بأن بشراً قد سبقوا آدم لا يُلتفت إليه.

رابعًا: أن من تأمل المناسبة بين هذه الآية وما قبلها من آيات خلق السماوات والأرض سيخرج بنتيجة هي: أن آدم لم يُسبق ببشر ولا إنسان. يقول ابن عاشور: " فإن تعقيب ذكر خلق الأرض ثم السماوات بذكر إرادته تعالى جعل الخليفة دليل على أن جعل الخليفة كان أول الأحوال على الأرض بعد خلقها"[٢].

خامسًا: أن آدم عليه السلام لم يكن رسولاً أصلاً، وإنما هو نبي، وأول من أرسل هو نوح عليه السلام[٣]، وعلى التسليم بكونه رسولا فهو رسول إلى زوجته وأولاده[٤]، فليس ثمة بشر غيرهم آنذاك.

ومن الأدلة القرآنية التي يستدل بها التطوريون على وجود بشر سبقوا آدم: قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ﴾ [سورة آل عمران: ٣٣-٣٤].

ووجه الاستدلال بالآية عندهم من وجهين:

الأول: أن الآية تُثبت بأن الله اصطفى آدم، ولا يكون الاصطفاء إلا من أقرانٍ له[٥].

الثاني: أن الآية تُثبت بأن آدم ذرية، شأنه شأن نوح وإبراهيم عليهما السلام، فلا بد أن يكون قد انحدر من أب أو آباء يسبقونه![٦].

(١) صحيح البخاري رقم (٧٥١٦)، صحيح مسلم رقم (١٩٤)، سنن أبي داوود رقم (٤٧٠٢)، صحيح ابن حبان رقم (٦٤٧٦).
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/ ٣٩٩.
(٣) صحيح البخاري رقم (٧٥١٦)، صحيح مسلم رقم (١٩٤).
(٤) أضواء البيان، الشنقيطي، ١/ ١٥٥.
(٥) آذان الأنعام، عماد محمد، ص ١٦٨، كيف بدأ الخلق، عمرو شريف، ص٣٥٣.
(٦) قضية الخلق، حسن حامد ، ص١١٧.

المناقشة

إن الاستدلال بهذه الآية على ما يذكرونه ليس له حظ من الصواب، لما يلي:

أولاً: أنه لا يُسلّم بأن الاصطفاء لا يكون إلا من أقران، فقد أخبر تعالى أنه يصطفي من خلقه ما يشاء. قال تعالى: " ﴿لَّوْ أَرَادَ اللهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [سورة الزمر: ٤]. فلا دليل **على** تقييد الاصطفاء بأن يكون من بين أقران، والله تعالى له الحكمة البالغة، فيصطفي من يشاء كيفما يشاء، لا رادّ لحكمه ولا معقب لقضائه. قال تعالى: ﴿اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ﴾ [سورة الشورى: ١٣].

ثانيًا: أن لفظة ذرية في الآية الكريمة قد قُيّدت بالبعضية، وإذا كان الأمر كذلك فلا يمكن دخول آدم في وصف الذرية؛ لأنه ليس بعضاً منهم باتفاق، ولا يُخالف في ذلك التطوريون.

ثالثًا: أنه على التسليم بأن آدم ذرية فإن مقصودهم لا يتحقق؛ لأن من معاني الذرية عند بعض علماء العربية: الآباء. يقول الواحدي: "والذريةُ: تقع على الآباء والأبناء والأولاد والنساء، قال الله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [سورة يس:٤١]، أراد: آباءهم الذين حُمِلوا مع نوح في السفينة ، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ﴾ إلى قوله: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ﴾ [سورة آل عمران: ٣٣-٣٤]، فدخل فيها الآباء والأبناء"(١).

الآية في واقع الأمر تدل على خلاف مقصود التطوريون؛ ذلك أنها نصّت على اصطفاء آدم، وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن من اصطفاء آدم جعله أباً للبشر، وجعله أول هذا الجنس الشريف، وأن الله تعالى خلقه بيده(٢)، بل إن هذا الأمر الأخير اتفق فيه أهل

(١) التفسير البسيط، الواحدي، ١/ ٢٩٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٤/ ٦٤، البحر المحيط، أبو حيان، ٣/ ١٠٩، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص١٢٨.

الكتاب مع أهل الإسلام. يقول ابن تيمية: "إن الله تعالى خلق آدم بيده كما ذكر ذلك في الكتاب والسنة. والملائكة لم يخلقهم بيده، بل بكلمته، وهذا يقوله جميع من يدعي الإسلام سنيهم ومبتدعهم – بل وعليه أهل الكتاب..."(١).

رابعًا: أن المقصد من ذكر الذرية في الآية الكريمة، والإشادة بهؤلاء العظماء الأكابر، هو: أن يُعرف أن الفضل والخير قد تسلسل في ذكورهم وإناثهم. وإذا استحضرنا أن سياق الآيات إنما هو في الرد على أهل الكتاب فسنعرف أنه من مقاصد هذه الآيات: تذكير أهل الكتاب بالصلة الوثيقة بين نبينا عليه الصلاة والسلام والانبياء من قبله، وأنه لا يليق بكم يا أهل الكتاب أن تجعلوا موجب القرابة موجب عداوة وتفريق(٢). فإقحام التطوريين مسألة أصل الخلق في الآية الكريمة خروج بها عن مقصدها وسياقها، علاوة على مخالفتها الظاهر من معناها.

ومن الآيات القرآنية التي يستدل بها التطوريون على وجود بشر سبقوا آدم: قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ﴾ [سورة آل عمران: ٥٩].

ووجه الاستدلال عندهم: أن الآية نصت على أن عيسى من تراب، ونحن نعلم أن له أماً، فكذلك آدم الذي خُلق من تراب له آباء وأجداد خُلقوا من التراب(٣)، فبداية كل واحد منهما كانت من التراب قبل دهور طويلة، لكن لكل واحد منهما أصل بشري.

المناقشة

إن الاستدلال بهذه الآية الكريمة على ما ادّعاه التطوريون ليس بصواب مطلقاً، بل

(١) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، ٤/ ٣٦٥.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٣/ ٢٣١، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٩٦٥.
(٣) قضية الخلق، حسن حامد، ص١٢٩، كيف بدأ الخلق، عمرو شريف، ص٣٣٠، هل خُلق آدم في الأرحام، ص١٣٠.

الآية تنص على خلاف مُدّعاهم، وبيان ذلك فيما يلي:

أولاً: إن لهذه الآية سبب نزول متفقاً عليه، وهو: أن وفد نصارى نجران قد احتج على النبي ﷺ لإثبات ألوهية عيسى بأنه ليس له أب، وأما بقية البشر فلهم آباء، وإنما صار عيسى ليس له أب؛ لأنه ابن لله – تعالى الله عما يقولون- فجاء الرد عليهم بأن آدم ليس له أبوان، فلو كان فقد الأب دليل على الألوهية لكان آدم أحق بذلك[١]. وإذا تقرر أن هذا هو سبب النزول فيتعيّن قطعاً تفسير الآية على ما يوافقه، ويكون دخول معنى سبب النزول في الآية دخولا قطعيا، وفي هذا الأمر ينص العلماء على قاعدة تفسيرية هي: صورة سبب النزول قطعية الدخول في معنى الآية، وكل قول يُخرج هذه الصورة عن مراد الآية باطل[٢]. وبناء على ذلك فلو فسّرنا الآية على مراد التطوريون لما كان في الآية رد على النصارى، بل على العكس من ذلك ستكون حجتهم ظاهرة، وسيقولون للنبي عليه الصلاة والسلام: إن لآدم أبوين، فليس هو كعيسى، فصح ما قلناه من ألوهية عيسى لتفرده عن البشر بوجوده من غير أب!

وهكذا يُقدّم التطوريون الحجة للنصارى على المسلمين لجهلهم بسبب نزول الآية، وفرط حماسهم لإثبات صحة التطور.

ثانيًا: أن هذا المعنى الذي دلّ عليه سبب النزول: هو محل إجماع بين المفسرين[٣]، وعليه فلا يحل القول بخلافه[٤].

(١) العجاب في بيان الأسباب، ابن حجر، ٢/ ٦٧٩.

(٢) قواعد التفسير، السبت، ٢/ ٦٠٢ – ٦٠٣.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي، ٨/ ٢٤٢.

(٤) كما سبق في آخر المطلب الثالث.

ثالثًا: أن سياق الآيات كلها في الرد على النصارى، فلا يسوغ إقحام هذا المعنى الأجنبي الذي يعود على الحجة القرآنية بالإبطال[١].

رابعًا: أن ما ذكره التطوريون من أن الآية تذكر أن عيسى خُلق من تراب: غلط، بل هي تتحدث عن آدم فحسب، يقول ابن عاشور: "والضمير في خلقه لآدم لا لعيسى إذ قد علم الكل أن عيسى لم يخلق من تراب، فمحل التشبيه قوله: ثم قال له كن فيكون"[٢]، فهي ليست من تمام التشبيه، بل هي خبر مستأنف على جهة التفسير بحال آدم. يقول الزجاج: "﴿خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ﴾ [سورة آل عمران: ٥٩]، ليست بمتصلة بآدم، إنما هو مبيّن قصة آدم ... تقول: مثلك مثل زيد، تريد أن تشبهه في فعله، ثم تخبر بقصة زيد فتقول: فعل كذا وكذا"[٣]، فجعل ﴿ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ﴾ عائدة لعيسى خروج عن سنن العرب في كلامهم. والفائدة من ذكر هذا الأمر عن آدم عليه السلام: هو بيان أن خلق آدم من تراب مباشرة أبلغ وأعجب من خلق عيسى عليه السلام في الأرحام، ومع ذلك لا تُدّعى الألوهية ولا البنوة في آدم، فعيسى من باب أولى[٤].

رابعًا: أنه لو كان خلق آدم ملتبساً غامضاً على من خوطب بالآيات أول مرة لما ضرب الله به المثل؛ فإن أمثال الله لا تكون ملتبسة غامضة، بل واضحة يمكن البناء عليها. يقول أبو حيان: "لما خفي سر ولادة عيسى من غير أب؛ لأنه خالف المعروف، ضرب الله المثل بآدم الذي استقر في الأذهان، وعُلم أنه وُجد من غير أب ولا أم، كذلك خُلق عيسى من غير أب"[٥].

(١) فتوح الغيب، الطيبي، ٤/ ١٢٥.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٣/ ٢٦٣.
(٣) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج، ١/ ٣٥٥.
(٤) الجواب الصحيح، ابن تيمية، ٤/ ٥٥.
(٥) البحر المحيط، أبو حيان، ٣/ ١٨٤.

ومن الآيات القرآنية التي يستدل بها التطـوريون على وجود بشر سبقوا آدم: قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾ [سورة الأعراف: ١١].

ووجه الاستدلال عندهم أن الآية ذكرت أمر الخلق والتصوير، قبل أمر السجود، وحيث ذُكر المخاطب في الخلق والتصوير بصيغة الجمع فلا يكون المراد به آدم؛ لأنه فرد لا جمع، فتعيّن أن يكون المراد: جمع من الناس كانوا قبل آدم، ويؤكد ذلك أن السجود عُطف على الخلق والتصوير بحرف العطف (ثم) الدال على الترتيب مع التراخي[١].

المناقشة

إن الاستدلال بهذه الآية على ما ادّعاه التطوريون ليس له حظ من النظر، لما يلي:

أولاً: أن قولهم هذا خارج عن أقوال المفسرين بالكلية، فكلام السلف في المعني بالخلق والتصوير لا يخرج عن إرادة آدم أو ذريته أو كلاهما، وزاد بعض المتأخرين احتمال أن يراد: خلق الأرواح، وقال بعضهم المراد بالخلق هنا: التقدير الأزلي. ولم يقل أحد بما قاله التطوريون، وقد سبق أنه لا يصح الخروج عن جميع أقوال السلف بما يعود عليها جميعا بالإبطال[٢].

ثانيًا: أنه من الملاحظ أن الضمير في الخلق والتصوير هو لمخاطب وليس لغائب، فلو كان يُراد به خلقٌ قبل آدم لقال: ولقد خلقناهم ثـم صورناهـم، بصيغـة الغائـب، أما وقد جاء الضمير بصيغة المخاطب فتعيّن أن يُراد به الجنـس الآدمي، ويدخـل فيـه أصالـة من خوطبوا بالقرآن من زمن النبي ﷺ إلى قيام الساعة، إما ابتداء أو تبعاً لأبيهم آدم عليه السلام.

(١) أبي آدم، عبد الصبور شاهين، ص٩١، قضية الخلق، حسن حامد، ص١٥٨، كيف بدأ الخلق، عمرو شريف، ص٣٥٨، هل خُلق آدم في الأرحام، ص١٠٧.
(٢) أول هذا المطلب.

ثالثًا: أنه سبق أن أصح طرق التفسير: تفسير القرآن بالقرآن، وأن من شأن آي الذكر الحكيم أن يكون لها نظائر(١)، وما نحن فيه هو من هذا القبيل؛ ذلك أنه من عادة القرآن الكريم عند الحديث عن خلق الإنسان أن يُذكرهم بأصل خلقهم الأول من طين. يقول ابن القيم:" قلت: والقرآن يفسر بعضه بعضا، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [سورة الحج: ٥]. فأوقع الخلق من تراب عليهم، وهو لأبيهم آدم، إذ هو أصلهم، والله سبحانه يخاطب الموجودين، والمراد آباؤهم .... وهو كثير في القرآن يخاطبهم والمراد به آباؤهم فهكذا قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ [سورة الأعراف: ١١]"(٢). ومن قواعد التفسير، اللغوية المؤيدة لكلام ابن القيم: أن من شأن العرب إضافة أفعال الأسلاف إلى الأبناء، وخطاب الأبناء وإضافة الفعل إليهم وهو لآبائهم(٣). والقرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، وعلى وفق عادة العرب في كلامهم.

رابعًا: أن ما ذكره التطوريون من أن المراد من الآية: أسلاف لآدم، يؤول إلى إخراج الآية من مقصدها؛ إذ أن مقصد الآية هو: التنبيه على موضع العبرة، والتعجيب من غريب الصنعة وإسداء النعمة، فبدأ بالخلق الذي هو: الإيجاد بعد العدم، ثم بالتصوير في هذه البنية المخصوصة للبشر(٤). وهو أمر يدركه المخاطبون على اختلاف ثقافاتهم وأزمانهم، بل وأديانهم، فلو كان المراد بالآية ما ذكره التطوريون، لكان لأكثر المخاطبين أمراً خفياً مجهولاً، فضلاً أن يكون موضع عبرة وتعجيب.

(١) يُنظر المناقشة في المطلب الثالث.
(٢) الروح، ابن القيم، ص٢٤٦.
(٣) العذب النمير، السبت، ٤/ ٤١٩، قواعد التفسير، السبت، ١/ ٣١٦.
(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٢/ ٣٧٧.

خامسًا: أن التعبير عن آدم عليه السلام بصيغة الجمع له مغزى بلاغي، وهو: أن كل آدمي له حظ من الخلق والتصوير الإبداعي لآدم عليه السلام الذي تفرّد به عن سائر المخلوقات[١]، وهذا المغزى سيفوت لو أخذنا بتفسير التطوريين.

سادسًا: أنه لو أخذنا برأي بعض المفسرين من أن الخلق والتصوير يعودان للذرية فإن هذا لا يشكل عليه وجود (ثم)؛ لأن العطف بها قد يراد به العطف الزمني، وقد يراد بها عطف الجمل أو الإخبار بغض النظر عن ترتيبها الزمني، ومن ذلك قول الله عز وجل بعد ذكر المحرمات علينا: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ [سورة الأنعام: ١٥٤]، ومعلوم أن إيتاء موسى الكتاب كان قبل تلاوة المحرمات علينا، وإنما تأويل الآية: ثم نخبركم أنا أتينا موسى الكتاب[٢]، وكقوله تعالى: ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ[١٥] أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ[١٦] ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [سورة البلد: ١١٥-١٧]. ومعلوم أن مرتبة الإيمان سابقة على الإطعام والعتق. فالأقوال الواردة عن السلف في تفسير آية ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا﴾ [سورة الأعراف: ١١]، قريبة لها حظ من النظر، بخلاف ما يذكره التطوريون.

(١) روح المعاني، الألوسي، ٨/ ٣٨٩.
(٢) الجنى الداني، المرادي، ص٤٢٨.

المطلب الخامس
الآيات التي تُشير إلى وجود تطور في خلق الإنسان، واستمرار عملية التطور

يرى التطوريون أن ثمة آيات قرآنية تدل على أن التطور حصل بالفعل، وأنه لم يتوقف، **ومن ذلك استدلالهم بقول الله تعالى:** ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ [سورة الأنعام: ١٣٣].

يقول بعضهم: "ونخلص من كل ما تقدّم، وبنص الكتاب المجيد: أن آدم وأبناؤه من الإنس إنما هم ذرية قوم آخرين، قوم أثبت رجال العلم إنهم إنسان يسبق الإنسان البشر"(١)، ويزيد الأمر وضوحاً كاتب آخر فيقول: "فالآية تبين أن الخالق الكريم قد أنشأنا نحن البشر من ذرية قوم آخرين...وهذا أقرب من القول بأن القوم الآخرين هم آدم، أو أنهم أجدادنا فأجدادنا لا يوصفون بالآخرين"(٢)، كذلك استدل آخر باستعمال الحرف (ما) فيقول: "يمكننا أولاً ملاحظة أن (ما) تدل على أن من يستخلفهم الله بعد الناس ليسوا من الإنس؛ لأن (ما) لم ترد في القرآن للإشارة إلى الإنسان إلا عندما تُغلّب أنواع المخلوقات من غير الناس عليهم، أو في معرض الحديث عن الحمل أو ما في الأرحام"(٣).

المناقشة

هذه الآية الكريمة هي في واقع الأمر أقرب إلى أن تكون دليلاً على بطلان النظرية، وليس على إثباتها، وما ذكره التطوريون لا يصح، وذلك لما يلي:

أولاً: أن المقصد من هذه الآية الكريمة: تحذير الناس من ترك منهج الله، وأنهم إذا فعلوا ذلك فالله تعالى قادر على أن يذهب بهم، ويأتي بقوم آخرين يتبعون شرعه، وما دلت عليه

(١) قضية الخلق، حسن حامد، ص١٦٤.
(٢) كيف بدأ الخلق، عمرو شريف، ص٣٥٤.
(٣) هل خلق آدم في الأرحام، ص٥٢.

هذه الآية من هذا المقصد قد دلّت عليه آيات كثيرة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ [سورة النساء: ١٣٣]، وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ [سورة محمد: ٣٨]. فالآية التي استدلوا بها لا تخرج عن نظائرها التي تُحذر الناس من المعصية، وأما ما ذكره التطوريون فأجنبي عن ذلك. وخير ما يُفسّر به القرآن: هو القرآن.

قال الشنقيطي: "أكثر الله -جلَّ وعلا- في القرآن من ذكره أن الموجودين إذا لم يطيعوه ويمتثلوا أمره ا فهو غني عنهم قادرٌ على إإذهابهم وإزالتِهم بالكلية والإتيان بمن يَخْلُفُهُمْ، بل من يكونُ خيرا منهم"(١).

فمقصد الآية ونظائرها بعيد كل البعد عمّا ذكره التطوريون.

ثانيًا: أن التبديل هنا مختلف عن التبديل في نظرية التطور، وكذلك الإذهاب في الآية مختلف عن الإذهاب في نظرية التطور، فالتبديل في الآية ليس حتمياً، بل هو مشروط بالمعصية، فإذا كان القوم أهل طاعة فلا تبديل(٢)، وكذلك الإذهاب، فالإذهاب في الآية هو إذهاب الاستئصال، بخلاف الإذهاب في نظرية التطور فإنه تدريجي بطيء اعتيادي.

يقول الشنقيطي: "المرادُ هنا: الإذهابُ بوقت واحد، بأن يذهبهم جميعًا، وليس المرادُ أن يذهبهم تدريجا بالموت كما هي عادتُه في القرون أن يُفْنِيَ قرنا تدريجًا بالموتِ، ثم يأتي بعده بقرن آخر تدريجً بالولادة؛ لأن هذا هو الواقع، فلو كان هو المراد لما قال: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾؛ لأنه مذهبهم قطعا ومستخلف بعدَهم ما يشاء على التدريج، هذا واقع قطعا"(٣).

(١) العذب النمير، السبت، ٥/ ٥١٠، ويُنظر تلبيس الجهمية، ابن تيمية، ٦/ ٥٩٠.
(٢) الكشاف، الزمخشري، ٢/ ٦٤.
(٣) العذب النمير، السبت، ٢/ ٣٠٦.

ثالثًا: أن المفسرين اتفقوا على أن قوله تعالى: ﴿مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ هم من ذرية آدم، ولم يقل أحد منهم بخلاف ذلك، وإنما وقع الخلاف هل المراد: أهل سفينة نوح أو آباء المخاطبين. وهذا الإجماع مستند إلى الآيات القرآنية الكثيرة التي يذكر الله فيها استخلاف أقوام بعد أقوام، وكلهم من ولد آدم كقوله تعالى: في قصة نوح ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ﴾ [سورة يونس: ٧٣]، وقال تعالى في خطاب هود لقومه: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ [سورة الأعراف: ٦٩]، وفي خطاب صالح لقومه: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ [سورة الأعراف: ٧٤]، وقال في خطاب موسى لقومه: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [سورة الأعراف: ١٢٩]، فيكون حمل الآية على مذهب التطوريين مخالفة للإجماع، فلا يصح حمل الآية عليه.

رابعًا: أن لفظ الآخرية في الآية لا ينافي أن الجميع من ولد آدم، ذلك أننا نرى الله تعالى في القرآن الكريم يصف الإنسان نفسه بالآخرية باعتبار نفخ الروح فيه، وذلك في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ [سورة المؤمنون: ١٤] بعد أن ذكر الله تعالى أطواره في بطن أمه، فلم ينافِ وصفه بالخلق الآخر كونه إنساناً واحداً ابن آدم. ويحتمل أن التعبير بالآخرية إشارة للبون الشاسع بين المبدَّلين ومن يأتي بعدهم. يقول ابن عاشور: "ووصف قوم ب آخرين للدلالة على المغايرة، أي قوم ليسوا من قبائل العرب، وذلك تنبيه على عظيم قدرة الله تعالى أن ينشيء أقواما من أقوام يخالفونهم في اللغة والعوائد والمواطن"[1].

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٨/ ٨٧.

خامسًا: (ما) في القرآن الكريم وفي لغة العرب قد تُستعمل للعاقل، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ [سورة النساء: ٣]. وقد يكون الغرض من ذلك غرضاً بلاغياً. يقول الألوسي: "وإيثار ما على من لإظهار كمال الكبرياء واسقاطهم عن رتبة العقلاء"(١)، كما أن من المعهود في العربية استعمال (ما)مع العاقل إذا كان المقصود ما يتعلق بالصفات. يقول الشنقيطي:" عَبَّرَ بـ (ما) هنا للإبهام في الشيء، وإن كان قد يقع على العاقل؛ لأن المقرر في علم النحو: أن الشيءَ إذا أُبْهِمَتْ صفاته – أي: كان المراد صفاته مثلا – أنه يُعبَّر عنه بـ (ما)"(٢). فاستعمال (ما) هنا في آية الأنعام ليس له علاقة بنظرية التطور، وإنما لحكم أخرى تتوافق مع نظائرها القرآنية، ومع اللسان العربي.

ومن الآيات القرآنية التي يستدلّ بها التطوريون على وجود التطور واستمراره: قوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ للهِ وَقَارًا(١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا(١٤)﴾ [سورة نوح: ١٤]، حيث فسروا هذه الأطوار بأنها التدرج الذي مرّ على خلق الإنسان إلى جيل آدم عليه السلام! وأن البشر قبل آدم كانوا بلا سمع ولا بصر ولا عقل، ثم تطوروا شيئاً فشيئاً إلى أن اكتملت صفاتهم في آدم عليه السلام(٣) وأنه لا يبغي الأنفة من حقيقة أن الإنسان منتمي لغيره من الحيوانات ثم إنه تطوّر ليكون في آخر أطواره على هذه الهيئة الآدمية(٤).

المناقشة

نوقش المستدلون بهذه الآية على نظرية التطور بما يلي:

أولاً: لا يصح ابتداء حمل كلمة الأطوار في الآية الكريمة على الأطوار التي يذكرها أصحاب

(١) روح المعاني، الألوسي، ٨/ ٣٠.
(٢) العذب النمير، السبت، ٢/ ٣٠٦.
(٣) أبي آدم، عبد الصبور شاهين، ص٩٥، آذان الأنعام، عماد محمد، ص١٧٣.
(٤) قضية الخلق، حسن حامد، ص١٤٥.

هذه النظرية لمجرد التشابه بين الكلمتين؛ ذلك أن القاعدة التفسيرية المقرّرة تنص على: أنه لا يصح حمل اللفظ القرآني على اصطلاح حادث[١]. كما أن أصول التفسير تقتضي تفسير القرآن بالقرآن والسنة وكلام السلف واللغة العربية، لا أن يُفسّر اللفظ أو التركيب القرآني على أمر حادث، ولذا لا يجوز تفسير الذرة في القرآن على الذرة في علم الكيمياء، ولا النفاثات في القرآن على المركبات الطائرة، ولا الكواكب في القرآن على ما اصطلح عليه علماء الفلك في معنى الكواكب، فكذلك لا تُحمل كلمة الأطوار في القرآن على ما يتعارف عليه في نظرية التطور.

ثانيًا: أن الأطوار في الآية الكريمة قد جاء تفسيرها في القرآن الكريم في آيات أخر متعددة، فلا يحل تجاوز ذلك وإهماله، بل الواجب اعتماده والقول به. يقول الشنقيطي: "وقد أوضحها تعالى – الأطوار– إيضاحا تاما في قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ[١٢] ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ[١٣] ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[٢] [سورة المؤمنون: ١٢-١٤]. والآيات القرآنية في أحوال خلق الإنسان كثيرة مبثوثة في سور متعددة، فإهمالها جميعاً، وتفسير الأطوار بما هو أجنبي عن القرآن أمر لا يتفق والمنهجية الصحيحة في تفسير القرآن الكريم.

ثالثًا: أن المفسرين من السلف قد اتفقوا على أن الأطوار التي ذُكرت في سورة نوح مجملة هي الأطوار التي ذكرت في سورة الأنبياء وغيرها مفصلة[٣]، زاد بعض المتأخرين احتمالاً

(١) قواعد التفسير، السبت ، ١/ ٢٣٠.
(٢) أضواء البيان، الشنقيطي، ٣/ ٢٧٥.
(٣) البسيط، الواحدي، ٢٢/ ٢٥٧.

بأن تكون الأطوار هي أحوال الناس وألوانهم وأنواعهم بعد ولادتهم [١]، لكن هذا لا ينافي القول الأول، بل هو زيادة محتملة، أما ما ذكره التطوريون فهو خارج عن الإجماع، عائد على أقوال جميع المفسرين بالإبطال، فلا يصح والحالة هذه حمل آي القرآن عليه.

رابعًا: أن هذا الذي ذكره التطوريون لا يتماشى مع عادة القرآن في تقرير عقيدة البعث وإثبات قدرة الرب – جل جلاله- عليه، ولا ينتظم مع سياق الآية الكريمة، فإن نوحاً عليه السلام يدعو مشركين منكرين للبعث، فكان غرضه من ذكر الأطوار تذكير قومه بأن هذا الذي خلقكم على هذه الكيفية العجيبة التي تعرفونها، قادر على إعادتكم بعد موتكم أحياء، أما الحديث معهم عن أشياء لم يعرفوها ولم يُشاهدوها، يُزعم أنها من ملايين السنين، من قبيل أن الإنسان كان خلية ثم تطوّر شيئا فشيئا إلى أن صار مخلوقا يسمع ويبصر، فهذا أمر لو فُرض صحته إلا أنه لا تقوم به الحجة عليهم؛ لكونهم لم يُشاهدوه، وليس ثمة براهين تدل عليه عندهم، فيكون الحديث معهم عنه عديم الفائدة في قضية التوحيد والبعث، بل سيسخرون من نبي الله – عليه السلام- أكثر من سخريتهم على صنعه الفلك. يقول السعدي: "فالذي انفرد بالخلق والتدبير البديع، متعين أن يفرد بالعبادة والتوحيد، وفي ذكر ابتداء خلقهم تنبيه لهم على الإقرار بالمعاد، وأن الذي أنشأهم من العدم قادر على أن يعيدهم بعد موتهم"[٢]. ويقول ابن عاشور: "ولأن الأطوار دالة على حكمة الخالق وعلمه وقدرته، فإن تطور الخلق .... دليل على تمكن الخالق من كيفيات الخلق والتبديل في الأطوار، وهم يدركون ذلك بأدنى التفات الذهن، فكانوا محقوقين بأن يتوصلوا به إلى معرفة عظمة الله وتوقع عقابه لأن الدلالة

(١) البحر المحيط، أبو حيان، ١٠/ ٢٨٣.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٨٨٩.

على ذلك قائمة بأنفسهم"[١]. ويقول عطية سالم: "إن بيان أطوار خلقة الإنسان على النحو المتقدم أقوى فِي انتزاع الاعتراف بقدرة الله من العبد، مَنْ يُحْيِي الْمَخْلُوقَ جملة؛ لأنه يوقفه عَلَى عدة مراحل ممن حياته وإيجاده، وكل طور منها آية مستقلة"[٢].

ومن الآيات التي يستدل بها التطوريون على حصول التطور، واستمرار عملية التطور: قول الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [سورة الإنسان: ١]، حيث يرون أن هذه الآية تشير إلى إنسان ما قبل الأطوار الإنسانية، وقبل طور الإنسان العاقل، حيث كان واحداً من مخلوقات كثيرة غير عاقلة قبل ملايين السنين، ليس لها قيمة، قبل أن يتشرّف من سلالتهم آدم عليه السلام بنفخ الروح فيه! وهم جميعاً – بمن فيهم آدم– مخلوقون من نطفة أمشاج[٣].

المناقشة

ونوقش المستدلون من التطوريين بهذه الآية بما يلي:

أولاً: أنه باستقراء كلمة الإنسان في القرآن الكريم نجد أنها قد ذُكرت خمساً وستين مرة[٤]، وكلها باتفاق المفسرين يُراد بها الجنس الآدمي، إلا أنه في بعض المواضع لا يدخل في ذلك آدم عليه السلام[٥]، ولا يصح فيها جميعاً الزعم بأن المراد: إنسان قبل آدم؛ لأمور كثيرة، منها أنها سيقت لمخاطبة الجنس الآدمي حثاً له على اتباع منهج الله تعالى،

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٩/ ٢٠١.
(٢) أضواء البيان، تكملة عطية سالم، ٨/ ٣٠٩.
(٣) قضية الخلق، حسن حامد، ص١٥٧، كيف بدأ الخلق، عمرو شريف، ص٣٦٣، هل خُلق آدم في الأرحام، ص١٤٩-١٥٠.
(٤) المعجم المفهرس الشامل، ١/ ٢٦.
(٥) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، ١٦/ ٢٦٠.

وتعريفاً له بطبيعته كي يقوّمها، وإذا كان الأمر كذلك فلا مصلحة شرعية للجنس الآدمي أن يُخبر بما يُزعم أنها أطوار ما قبل الآدمية؛ لأن تلك الأطوار – كما يقول التطوريون- أحوال لا رجعة لها، قد ارتفع عنها الجنس البشري حين اكتسب العقل ونُفخت فيه الروح.

ثانيًا: أن هذه الآية لها نظائر متعددة يُراد بها قطعاً الإنسان الآدمي، ومن ذلك قول الله تعالى لزكريا عليه السلام: " ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴿٩﴾﴾ [سورة مريم: ٩]، وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴿٦٧﴾﴾ [سورة مريم:٦٦-٦٧]، وهذه الآيات في الجنس الآدمي قطعاً، فحمل آية سورة الإنسان عليها هو المتعيّن.

ثالثًا: أنه لم يقل أحد من المفسرين ولا غيرهم من علماء المسلمين قديما ولا حديثا أنه يُراد بالإنسان هنا: طور ما قبل آدم، فالزعم بذلك مخالف للإجماع القطعي، لا يحل القول به.

رابعًا: أن ما قاله التطوريون مخالف للمقصد من هذه الآية الكريمة ونظائرها. فالمراد بهذه الآية ونظائرها: الاستدلال بها على البعث. يقول ابن عاشور في أغراض هذه السورة: "التذكير بأن كل إنسان كون بعد أن لم يكن، فكيف يقضي باستحالة إعادة تكوينه بعد عدمه. وإثبات أن الإنسان محقوق بإفراد الله بالعبادة؛ شكرا لخالقه..."[1].

خامسًا: أن ما ذكره التطوريون – كما أنه مخالف للمقصد من الآية- هو أيضاً مخالف لسياق السورة برمتها، فإن هذه السورة تتحدث عن الإنسان من حيث المبدأ والختام وما بينهما. يقول السعدي: "ذكر الله في هذه السورة الكريمة أول حال الإنسان ومتوسطها

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٩/ ٣٧١، ويُنظر مجموع الفتاوى، ١٦/ ٢٦٣.

ومنتهاها: فذكر أنه مر عليه دهر طويل، وهو الذي قبل وجوده، وهو معدوم، بل ليس مذكورا.

ثم لما أراد الله تعالى خلقه، خلق أباه آدم من طين، ثم جعل نسله متسلسلا ﴿مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ أي: ماء مهين مستقذر ﴿نَبْتَلِيهِ﴾: بذلك؛ لنعلم هل يرى حاله الأولى ويتفطن لها أم ينساها وتغره نفسه؟ ... ثم أرسل إليه الرسل، وأنزل عليه الكتب...ثم ذكر تعالى الفريقين عند الجزاء"[1]. أما أطوار ما قبل الإنسانية – التي يزعمون- فهي أجنبية عن السورة، بل عن القرآن، وإقحامها هنا يترتب عليه الإخلال في النظم؛ لأن الحديث في السورة إنما هو عن الجنس الآدمي المكلف، الذي أرسل إليه الرسل، وأنزلت لأجله الكتب، وليس الحديث في السورة عن مخلوق غير عاقل ولا مكلّف لا علاقة له بالرسل ولا الكتب ولا بالجزاء، قد انقرض – كما يقولون- من دهور طويلة.

سادسًا: أن التطوريين قد فسّروا قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾: بأن كان موجوداً، ولكنه لم يكن ذا قيمة. مع أن ثمة احتمال آخر في الآية أن يُراد: أنه لم يكن موجوداً أصلاً. وهذا القول قد قال به جماعة من المفسرين[2]، ويشهد له آيات متعددة ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ [سورة مريم: ٦٦-٦٧]. وما تواتر في الكتاب والسنة من أن آدم آخر المخلوقات[3]، وما هو مُشاهد من أن كل إنسان وُجد بعد أن لم يكن. وليس من الأمانة العلمية إغفال قولٍ له ما يشهد له، كما أنه لا يصح القطع بأحد الأقوال مع وجود المعارض القوي.

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٩٠٠.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٩/ ١١٩).
(٣) المرجع السابق.

الخاتمة

في خاتمة هذا البحث يطيب لي أن أذكر أهم النتائج والتوصيات.

أهم النتائج

١. لا يرى الباحث صحة أي استدلال على نظرية التطور من هذه الآيات المذكورة في البحث.

٢. يفتقد المؤيدون لنظرية التطور – ممّن وقف الباحث على كلامهم- المعرفة بأصول التفسير وقواعده.

٣. أثبتت مناقشة هذه الاستدلالات أن الأخذ بها سيؤدي إلى التنافر بين آيات القرآن الكريم، وإلى مخالفة الإجماع.

٤. لم يُراع المستدلون بهذه الآيات سياق الآيات، ولا مقاصدها، كما أن إحاطتهم بكلام المفسرين كانت قاصرة جداً.

٥. ظهر للباحث تعسف هؤلاء المستدلين في حمل نصوص القرآن الكريم على مُدّعاهم.

ثانياً: التوصيات

١. يرى الباحث أهمية التحذير من إقحام النصوص القرآنية في أمور العلم التجريبي، وأن هذا الأمر محفوف بالمخاطر، ولا بدّ من التؤدة فيه.

٢. التأكيد على وجوب دراسة ومعرفة أصول التفسير وقواعده لمريد الحديث عن معاني القرآن الكريم، وأنه لا يحل الكلام في معاني القرآن الكريم لمن افتقد ذلك.

٣. التأكيد على أنه لا يمكن حصول تعارض بين قطعيات العلم الحديث والدلالات القرآنية القطعية.

٤. الكتابة الموسعة المؤصلة في العلاقة بين النصوص القرآنية ومعطيات العلم التجريبي.

قائمة المراجع

أبي آدم. قصة الخليقة بين الأسطورة والحقيقة، شاهين، عبد الصبور، ط٢، القاهرة: دار أخبار اليوم.

اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، الرومي، فهد بن عبد الرحمن، ط١، ١٤٠٧هـ.

آدم عليه السلام بين التطور والتطور الموجه والوحي، الشحات، إبراهيم بن خميس. ط١، الخبر: تكوين للدراسات الفكرية، ١٤٤٠هـ.

آذان الأنعام، بابكر، عماد بن محمد، ط١، الخرطوم: دار عزة للنشر، ٢٠٠٧م.

أضواء البيان. الشنقيطي، محمد الأمين بن المختار، بيروت: دار الفكر، ١٤١٥هـ.

أعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، محمد بن أبي بكر. تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد. بيروت: دار الجيل، ١٩٧٣م.

البحر المحيط في التفسير، أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف تحقيق: صدقي جميل، لبنان: دار الفكر، ١٤٢٠هـ.

البداية والنهاية، ابن كثير، إسماعيل بن عمر، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط١، السعودية، دار هجر، ١٤١٨هـ.

بيان تلبيس الجهمية، ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، ط١، المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤٢٦هـ.

التحرير والتنوير، ابن عاشور، الطاهر بن محمد، تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م.

تفسير ابن كثير، ابن كثير، إسماعيل بن عمر، تحقيق: سامي السلامة. ط٢، الرياض: دار طيبة، ١٤٢٠هـ.

التفسير البسيط، الواحدي علي بن أحمد، تحقيق: مجموعة من الباحثين، ط١، السعودية: جامعة الإمام محمد بن سعود، ١٤٣٠هـ.

تفسير السعدي، السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، تحقيق: عبد الرحمن اللويحق، ط١، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٢٣هـ.

تفسير الطبري، الطبري، محمد بن جرير، تحقيق: عبد الله التركي. ط١، السعودية: دار هجر، ١٤٢٢هـ.

الجامع لأحكام القرآن، القرطبي محمد بن أحمد، تحقيق: أحمد البردوني. ط٢، مصر: دار الكتب المصرية، ١٣٨٤هـ.

الجنى الداني في حروف المعاني، المرادي، الحسن بن قاسم، تحقيق: فخر الدين قباوة، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٣هـ.

الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم. تحقيق: مجموعة من الباحثين، ط٢، الرياض: دار العاصمة، ١٤١٨هـ.

روح المعاني، الألوسي، محمود بن عبد الله، تحقيق: علي عبد الباري، ط١، لبنان: دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ.

الروح في الكلام على أرواح الأموات، ابن القيم، محمد بن أبي بكر، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٦م.

سنن الترمذي (جامع الترمذي)، الترمذي، محمد بن عيسى، ط٢، لبنان: دار الجيل، ١٩٩٨م.

السياق القرآني وأثره في تفسير المدرسة العقلية، الشهراني، سعد بن محمد، ط١، الرياض: كرسي القرآن الكريم في جامعة الملك سعود، ١٤٣٦هـ.

صحيح ابن حبان، ابن حبان، محمد بن أحمد، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ط٢، مؤسسة الرسالة: بيروت، ١٤١٤هـ.

صحيح البخاري، البخاري، محمد بن إسماعيل، ط٢، الرياض: مكتبة دار السلام، ١٤١٩هـ.

صحيح مسلم، القشيري، مسلم بن الحجاج، ط١، الرياض: دار السلام، ١٤١٩هـ.

العجاب في بيان الأسباب، ابن حجر، أحمد بن علي. تحقيق: عبد الحكيم الأنيس، ط١، الدمام: دار ابن الجوزي، ١٤١٨هـ.

العذب النمير، الشنقيطي، محمد الأمين بن المختار، جمع: خالد السبت، ط٢، مكة المكرمة: دار عالم الفوائد، ١٤٢٦هـ.

فتوح الغيب، الطيبي، الحسين بن عبد الله، المشرف على إخراج الكتاب: محمد سلطان العلماء، ط١، الإمارات العربية: جائزة دبي الدولية، ١٤٣٤هـ.

قضية الخلق من الوحي إلى دارون، عطية، حسن حامد. ط١، بيروت: دار الخيال، ١٩٩٩م.

قواعد التفسير، السبت، خالد بن عثمان، ط١، السعودية: دار ابن عفان، ١٤١٧هـ.

الكشاف، الزمخشري، محمود بن عمرو، ط٣، لبنان: دار الكتاب العربي، ١٤٠٧هـ.

كيف بدأ الخلق، شريف، عمرو شريف، ط١، القاهرة: مكتبة الشروق الدولية ١٤٣٢هـ.

مجموع الفتاوى، ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم. تحقيق: عبد الرحمن بن قاسم، السعودية: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤١٦هـ.

المحرر الوجيز ابن عطية، عبد الحق بن غالب، تحقيق: عبد السلام بن عبد الشافي، ط١، لبنان: دار الكتب العلمية، ١٤٢٢هـ.

معاني القرآن وإعرابه، الزجاج، إبراهيم بن السري. تحقيق: عبد الجليل عبده، ط١، لبنان: عالم الكتب، ١٤٠٨هـ.

المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، جلغوم، عبد الله إبراهيم. ط١، الرياض: مركز تفسير للدراسات القرآنية، ١٤٣٦هـ.

مفاتيح الغيب، الفخر الرازي، محمد بن عمر، ط٣، لبنان: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠هـ.

مفتاح دار السعادة، ابن القيم، محمد بن أبي بكر، تحقيق: عبد الرحمن بن قايد، ط١، مكة المكرمة: دار عالم الفوائد، ١٤٣٢هـ.

المفسر- شروطه- آدابه، سهيل، أحمد قشيري، ط١، الرياض: مكتبة الرشد، ١٤٢٩هـ.

مقاصد القرآن الكريم مجموعة أبحاث، تحرير: سليم العوا. ط١، القاهرة: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ١٤٣٧هـ.

مقدمة في أصول التفسير، ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، تحقيق: محب الدين الخطيب. القاهرة: المكتبة السلفية.

من أصول الفقه على منهج أهل الحديث، الباكستاني، زكريا غلام. ط١: جدة: دار الخراز.

الموافقات، الشاطبي، إبراهيم بن موسى، تحقيق: مشهور آل سلمان، ط١، ا لخبر: دار ابن عفان، ١٤١٧هـ.

النظريات العلمية الحديثة مسيرتها الفكرية، الأسمري، حسن محمد، ط١، جدة: مركز تأصيل للبحوث والدراسات، ١٤٣٣هـ.

النكت والعيون، الماوردي، علي بن محمد، تحقيق: السيد عبد المقصود، بيروت: دار الكتب العلمية.

هل خلق آدم في الأرحام، السناري، عبد الوهاب الصديق، نيروبي، ٢٠١٥م.

Ibliography:

Ittijahatul-Tafseer Fil-Qarnil-Rabi`I Ashar, Al-Roumi, Fahd bin Abdul Rahman, First Edition, 1407 AH.

Adam, Alaihissalam Bainal-Tatawwur Wal-Tatawwur Al-Muwajjah, Al-Shahat, Ibrahim bin Khamis. First Edition, Al-Khabar: Takween li Al-Dirasaatil-Fikriyah, 1440AH.

Adhanul-An`aam, Babiker, Imad bin Mohammed, First Edition, Khartoum: Daru Azza for Publishing. 2007 AD.

Adwa`ul-Bayaan, Al-Shanqiti, Muhammad Al-Amin bin Al-Mukhtar, Beirut: Darul-Fikr, 1415 AH.

A`alamul-Muwaqqi`een, Ibnul-Qayyim, Muhammad ibn Abi Bakr, Investigation: Taha Abdul Raouf Sa`ad. Beirut: Darul-Jeel, 1973 AD.

Al-Bahrul-Muheet, Abu Hayyan Al-Andalusi, Muhammad bin Yusuf, Investigation: Sidqi Jameeel, Lebanon: Darul-Fikr, 1420 AH.

Al-Bidayah Wal-Nihayah, Ibnu Katheer, Ismail bin Umar, Investigation: Abdullah bin Abdul Muhsin Al-Turki, First edition, Saudi Arabia, Daru Hajar, 1418 AH.

Bayanu Talbisul-Jahmyiah, Ibnu Taymiyyah, Ahmad bin Abdul Halim, First Edition, Madinah: King Fahd Complex for the Printing of the Noble Qur'an, 1426 AH.

Al-Tahreer Wal-Tanweer, Ibnu Ashour, Al-Tahir bin Muhammad. Tunisia: Tunisian publishing house, 1984AD.

Tafsiru Ibni Katheer, Ibnu Kathir, Ismail bin Umar, Investigation: Sami Al-Salama. Second Edition, Riyadh: DarU Taiba, 1420 AH.

Al-Tafseerul-Baseet, Al-Wahidi Ali bin Ahmad, Investigation: a group of researchers, First Edition, Saudi Arabia: Imam Muhammad bin Saud University, 1430 AH.

Tafseerul-Sa`adi, Al-Sa`adi, Abdurrahman bin Nasser, Investigation: Abd al-Rahman al-Luwaiq. First Edition, Beirut: Al-Resala Foundation, 1423 AH.

Tafseerul-Tabari, Tabari, Muhammad bin Jareer. Investigation: Abdullah Al-Turki, First Edition, Saudi Arabia: Daru Hajar, 1422 AH.

Al-Jami`u Li Ahkamil-Qur`an, Al-Qurtubi, Muhammad bin Ahmad, Investigation: Abdullah Al-Turki, First Edition, Lebanon: Al-Resala Foundation, 1427 AH.

Al-Janal-Dani Fi Hurufil-Ma`ani, Al-Muradi, Al-Hassan bin Qasim, Investigation: Fakhruddeen Qabawah, First Edition, Beirut: Darul-kutubil-Ilmiyyah, 1413 AH.

Al-Jawabul-Sahih Liman Baddala Dinal-Maseeh, Ibnu Taymiyyah, Ahmad bin Abdul-Halim, Investigation: A group of researchers. Second Edition, Riyadh: Darul-Asimah, 1418 AH.

Ruhul-Ma`aani, Al-Alusi, Mahmoud bin Abdullah, Investigation: Ali Abdel-Bari. First Edition, Lebanon: Darul-kutubil-Ilmiyyah, 1415 AH.

Al-Ruh Fil kalami Ala Arwahil-Mauta, Ibnul-Qayyim, Muhammad ibn Abi Bakr, Beirut: Darul-kutubil-Ilmiyyah, 1996 AD.

Sunanul-Tirmidhi, Al-Tirmidhi, Muhammad bin Isa, Second Edition, Lebanon: Darul-Jeel, 1998 AD.

Al- Siyaqul-Qur`ani Wa Atharuhu Fil-Madrasatil-Aqliyah, Al-Shahrani, Sa`ad bin Muhammad, First Edition, Riyadh: The Holy Quran Chair at King Saud University, 1436 AH.

Sahih Ibni Hibban. Ibnu Hibban, Muhammad bin Ahmed. Investigation: Shuaib Arnaout. Second Edition, Al-Resala Foundation: Beirut, 1414 AH.

Sahihul-Bukhari, Al-Bukhari, Muhammad bin Ismail. Second Edition, Riyadh: Darul Salam Bookshop, 1419 AH.

Sahihu Muslim, Al-Qushayri, Muslim bin Al-Hajjaj, First Edition, Riyadh: Darul-Salaam, 1419 AH.

Al-Ujaab Fi Bayanil-Asbaab, Ibnu Hajar, Ahmad bin Ali. Investigation: Abdul-Hakim Al-Anees, First Edition, Dammam:Daru Ibnil-Jawzi, 1418 AH.

Al-Adhbul-Muneer, Al-Shanqiti, Muhammad Al-Amin bin Al-Mukhtar, Collection: Khaled Al-Sabt. Second Edition, Makkah Al-Mukarramah: Daru Alamil-Fawa`id, 1426 AH.

Fattouhul-Ghayb, Al-Tibi, Al-Husayn bin Abdullah, Investigation: Muhammad Iyad. First Edition, United Arab Emirates: Dubai International Prize, 1434 AH.

Qadiyyatul-Khalqi Minal-Wahyi Ilal-Dauraan, Attia, Hassan Hamed, First Edition, Beirut: Darul-Khayal, 1999 AD.

Qawa`idul-Tafseer, Al-Sabt, Khalid bin Othman. First Edition, Saudi Arabia: Daru Ibni Affan, 1417 AH.

Al-Kasshaf, Al-Zamakhshari, Mahmoud bin Amr, Third Edition, Lebanon: Darul-kitabil-Araby, 1407 AH.

Kaifa badal-Khalq? Sherif, Amr Sherif. First Edition, Cairo: Al-Shorouk International Bookshop, 1432 AH.

Majmu`ul fatawa. Ibnu Taymiyyah, Ahmad bin Abdul Halim, Investigation: Abdurrahman bin Qasim, Saudi Arabia: King Fahd Complex for the Printing of the Noble Qur'an, 1416 AH.

Al-Muharrarul-Wajeez, Ibnu Attia, Abdul-Haq bin Ghalib. Investigation: Abdussalam ibn Abdul-Shafi. First Edition, Lebanon: House of Scientific Books, 1422 AH.

Ma`anil-Qur`ani Wa I`rabuh, Al-Zajjaj, Ibrahim bin Al-Sari, Investigation: Abdul-Jalil Abdu, First Edition, Lebanon: Alamul-Kutub, 1408 AH.

Al-Mu`jamul-Mufahras Al-Shamil Li Al-Fazil-Qur'anil-Kareem. Jalgoum, Abdullah Ibrahim, First Edition, Riyadh: Interpretation Center for Quranic Studies, 1436 AH.

Mafateehul-Ghaib. Al-Fakhr Al-Razi, Muhammad bin Umar, First Edition, Lebanon: Daru Ihya`il-Turathil-Araby, 1420 AH.

Miftahu Daril-Sa`adah, Ibnul-Qayyim, Muhammad ibn Abi Bakr, Investigation: Abdul Rahman bin Qaid, First Edition, Makkah Al-Mukarramah: Daru Alamil-Fawa`id, 1432 AH.

Al-Mufassir - Shurutuhu – Wa Adaabuh, Suhail, Ahmed Qureshi. First Edition, Riyadh: Al-Rushd Bookshop, 1429 AH.

Maqasidul-Qur`anil-Kareem, a group of researches, Editing: Salim Al-Awa, First Edition, Cairo: Al-Furqan Foundation for Islamic Heritage, 1437 AH.

Muqaddimatu Usulil-Tafseer, Ibnu Taymiyyah, Ahmed bin Abdul Halim. Investigation: Mohibuddeen Al-Khatib, Cairo: Al-Salafi Bookshop.

Min Usulil-Fiqhi Ala Manhaji Ahlil-Hadith, Pakistani, Zakaria Ghulam, First Edition, Jeddah: Dar Al-Kharraz, 1423 AH.

Muwafaqaat, Shatibi, Ibrahim bin Musa, Investigation: Mashhour Al Salman. First Edition, Al-Khabar Daru Ibni Affan, 1417 AH.

Al-Nazaraatul-Ilmiyatul-Hadithah Masiratuhal-Fikriyah, Al-Asmari, Hassan Mohammed, First Edition, Jeddah: Ta'seel Center for Research and Studies, 1433 AH.

Al-Nukat Wal-Uyoon, Al-Mawardi, Ali bin Muhammad. Investigation: Mr. Abdul-Maqsoud, Beirut Darul-kutubil-Ilmiyyah.

Hal Khuliqa Adam Fil-Arhaam. Al-Sinari, Abdul-Wahhab Al-Siddiq. Nairobi.